من الأوجه البلاغية في قصيدة فتح عمورية

لأبي تمام (ت ٢٣١هـ)

د. طارق امين ساجر الرفاعي

كلية الآداب – الجامعة العراقية

مُقَدِّمَة

قال الطبري: ((في سنة (٢٢٣هـ) ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة، أوقع توفيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زِبَطْرَةَ فأسرهم وخرّب بلدهم ، ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من المسلمين وسبا من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة، ومثَّل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم[١] .

فصاحت امرأة زِبَطْرِيَّةٌ مسلمة من السبايا (وامعتصماه) فبلغ المعتصم ذلك وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه، فوضعه، وأمر بان يحفظ، وقال: لبيك لبيك وصاح في قصره النفير، ثم ركب دابته وخرج من وقته، وكان سبب فتح عمورية، فلما رجع من فتحها شربه)) [٢] .

هكذا كانت الأحداث التي دفعت أبا تمام (ت٢٣١هـ) لأن يقول قصيدته هذه ؛ الشهيرة بفتح عمورية التي مطلعها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[٣]

القصيدة من البحر البسيط ، والقافية متراكب ، وبناء

البحر :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

واختار ابو تمام هذا البحر لقصيدته لسعته ؛ واستحكام عروضه وضروبه وانبساطه ، قال القرطاجني :((ومن تتبع كلام الشعراء في جميع الأعاريض وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان ووجد الافتنان في بعضها أعمّ من بعض فأعلاها درجة في

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٩/٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٣٦ .

(٢) تاريخ الطبري: ٢٩/٥، وديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: ٦٢/١، وديوانه بشرح الصولي: ١٩٩/١، والنظام لابن المستوفي: ٤٤/٢ .

(٣) القصيدة من البحر البسيط، وقافيتها المتراكب .

ذلك الطويل والبسيط))– ثم يواصل شغفه بالبحر البسيط في موضع آخر فيقول : ((فالعروض الطويل تجد فيه أبدًا بهاء وقوة وتجد للبسيط سباطة وطلاوة)) [١] . ووصفه الآلوسي في الفوائد الآلوسية بقوله :((وسمي هذا البحر بسيطا لكثرة أجزائهِ من البسيطة وهي السّعة أو لشهرته أو لكثرة استعمالهِ من البسط وهو النشر أو لانبساط الحركات في عروضه وضروبه إذ الألف كانت فاصلة بينهما فلّما حذفت انبسطت تلك الحركات)) [٢] وذكره جلال الدين الحنفي بقوله : ((فهو من بحور الشعر التي أُولع الشعراء بركوبها منذ الجاهلية وذلك لإتساع أفقه وإمتداد رقعته وجمال إيقاعه ويضيف قال الحفناوي في حواشيه على شرح الخزرجية : والطويل والبسيط اللذين هما أشرف من سائر البحور لطولهما وحسن ذوقهما وكثرة دورهما في أشعار العرب)) [٣] .

(استعار) للسيف القدرة على الإنباء الصادق بما يُسطِّر به من فعل في رقاب الأعداء ، إذ إن الإخبار يحتمل الصدق والكذب، والسيف لا يحتل إلاّ الصدق، وقدم الجار والمجرور (في حده) ليشير أن ذلك هو الفيصل بين الفعل والقول، إذ إن تداول الأخبار بين القادة والملوك كان بطريقة الكتب (الرسائل) فاستعارها) للسيف، وحذف المشبه به الإخبار بالكلمات وترك من لوازمه (الكتب)، (استعارة مكنية) ، وأراد بذلك أن يشير إلى أن فعل المعتصم في الأعداء المعتدين يغني عن الإخبار، بخلاف قادة

(١) ينظر منهاج البلغاء ص٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٢) الفوائد الآلوسيه على الرسالة الأندلسيه الشيخ عبد الباقي سعد الدين الآلوسي – مخطوط / ص١٨ .

(٣) العروض تهذيبه وإعادة تدوينه – جلال الحنفي ص١٦٤ مطبعة العاني بغداد ١٩٧٨ .

عصرنا تسمع لقلقة أخبارهم ولا ترى أفعالهم، وتميزت ألفاظ البيت بالدقة والوضوح والجزالة والفخامة والشدة التي تواكب الغرض، بعيدة عن الحشو، وتناسب مضمون قسمية. و(جانس) بين (حده- والحد، والحد، والجد) وطابق بين (الجد واللعب)(وصرّع) بيت المطلع وهو : (استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والرَّوي والإعراب وهو أليق ما يكون في مطالع القصائد) [١] بقوله (الكُتُبِ اللَّعِبِ) .

١. **بيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في مُتونِهنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ**

عزز في البيت الثاني ما ذكره من أوصاف في البيت الأول بألفاظ حسنة جزلة بعيدة عن الحشو، أسند فيه بيت المطلع فكان كالدعامة له، (استعار) أسطر متون الكتب، لأفعال متون صفائح السيوف في رقاب الأعداء عند الإخبار عن الحقيقة ، وحذف المشبه به وترك من لوازمه (سود الصحائف) ، (استعارة مكنية) و(المقابلة) وهي: ((أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة؛ ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل، وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به))[٢] وذلك في قوله: (بيض الصفائح) و(سود الصحائف) و (المطابقة) بين(بيض – وسود، جلاء – وشك وريب) .

لقد أجاد الشاعر صياغة (حسن المطلع) باختيار تلك الألفاظ المتوازنة جيدة السبك الخصبة التي تستشعر من شدتها مقارعة الرماح والسيوف وأزيز السهام، مع (التصريع) المقوي للإيقاع، وتمكن قافيته، وتناسب الاستعارات في قسميه . وأحسن (براعة الإستهلال) ؛ إذ لم يصرح في مطلعه بالغرض من القصيدة، بل أشار وأومأ بعبارات توحي وتدل عليه،

(١) خزانة الأدب للحموي: ٢٧٨/٢ .

(٢) الإيضاح للقزويني: ١٩٥ – ١٩٦ .

وبذلك استوفى حسن الأداء وسمو الإبداع ؛ في حسن المطلع وبراعة الإستهلال .

لقد بين القرطاجنّي أهمية ذلك بقوله: ((وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرَّة ؛ تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها)) [١] .

وفصَّل ابن حجة شروط المطلع بقوله: ((براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها، وأَن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرِّقة، وأَن يكون التشبيب مرقِّصا عند السَّماع، وطُرُق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشُّم الحزَن، ومطلعها مع اجتناب الحشو ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثاني)) [٢] .

هذه الشروط السبعة وضعها لكمال (حسن المطلع) .

أما شروط (براعة الاستهلال) فذكرها بقوله: ((أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بُنيت عليه، مُشعرا بغرض الناظم من غير تصريح؛ بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم ، ويُستدل بها على قصده من عتب أو عذرٍ أو مدح ...، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان)) [٣] وقد وُفِّق أبو تمام لهذا أيَّما توفيق .

٢. **والعِلْمُ في شُهُبِ الأرْمَاحِ لامِعَةً بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ**

(استعار) العلم الحقيقي لفعل أسنة الرماح بقوله: (والعلم في شهب ..)، إذ شبّه ما يرد من الأخبار عن طريق فعل الرماح بما يرد منها عن

---

(١) منهاج البلغاء: ٣٠٩ .

(٢) خزانة الأدب للحموي: ١/١٩-٢١ .

(٣) خزانة الأدب للحموي: ١/٣٠ .

طريق الكتب بجامع التعبير عن الأحداث في كلٍ؛ أي إن الخبر ما تراه لا ما تسمعه، (استعارة مكنية) . والمعنى: أن العلم لفعل الارماح بين الجيوش لا بما يتوهمه المنجِّمون أن الفعل للشهب السبعة ، وبذلك فانه واكب في الشطر الأول من هذا البيت ونصف الشطر الثاني المعاني الواردة في البيتين قبله، و(تخلص) بقوله: (لا في السبعة الشهب) إلى الغرض الثاني للقصيدة، إذ انتقل بلطف وسلاسة من المدح الذي في المطلع إلى الهجاء والذم في الأبيات بعده من غير أن يقطع توالي المعاني في الذهن أو أن يُحدث صدمة في نسق الألفاظ .

وكان (حسن التخلص) هذا في القافية وهو أشهره، وفي جزء من الشَّطر وهو الغاية في هذا الباب، كما قال القرطاجِنّي: ((فالذي يجب أن يُعتمد في الخروج من غرض إلى غرض، أن الكلام غير منفصل بعضه عن بعض، وان يحتال في ما يصل بين حاشيتي الكلام ويجتمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة، التقاءً محكماً فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام ، .... ولا يخلو التخلص من أن يكون في شطر بيت أو في بيت بجملته أو في بيتين وكلما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ ....، وإذا وقع ما يراد التخلص إليه في القافية كان أشهر له وأحسن موقعا من النفس)) [1] .

ووصفه ابن حجة بقوله: ((هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلاّ وقد وقع في المعنى الثاني، لشدة الممازجة والإلتئام والإنسجام بينهما، حتى كأنهما أُفرغا في قالب واحد)) [2] وربط بين (براعة الاستهلال) و (حسن

(١) ينظر: منهاج البلغاء: ٣١٧-٣٢٠ .

(٢) خزانة الأدب للحموي: ١/٣٢٩-٣٣١ .

التخلص) بقوله: ((فإذا حصل التصريح بالمدح في المطلع الذي هو براعة الاستهلال لم يبق لحسن التخلص موقع، فإن حسن التخلص من شرطه أن يخلص الشاعر من الغزل إلى المديح، لا من المديح إلى المديح)) [١].

وبين إن لمعان الأسنة بين حشود الجند كالشهب هي العِلم الحقيقي، لا خرافات المنجمين فيما يستنبطونه من الشهب السبعة (الشمس والقمر وزحل والمشتري، والمريخ والزهرة وعطارد) وهو ما هم عليه علماء الرومان وملوكهم. و(كرر) في قوله: (شهب، الشهب) لاختلاف العائد.و (الإفتنان): وهو أن يأتي الشاعر بفنين متضادين من فنون الشعر..[٢]، إذ جاء بالمديح في أول البيت وبالهجاء في آخره وفيه (رد العجز على الصدر) بقوله: (شهب) ثم قفّى بـ(الشهب) .

٣. أيْنَ الرِّوايَةُ أَمْ أَيْنَ النُّجومُ ومَا صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَذِبِ

٤. تَخَرُّصاً وأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

قال ابن المستوفي: ((وفي حاشيةٍ كانوا يزعمون انه إذا تم ملوك بني العباس ثمانية ذهب ملكهم، فكان المعتصم ثامنهم. فجرى على يده من فتح عموريّة ما جرى ؛ فلهذا قال أبو تمام: أين الرواية أم أين النجوم؟ فذكر الرواية قبل النجوم))[٣] وإن أَخبارهم هذه هراء لا قيمة لها، ليست بقوة شجر (النبع) ولا بضعف شجر (الغرب). و(طابق) بين (النبع–والغرب). و(المثل) في قوله: (ليست بنبع...الخ البيت)و(الاستعارة التمثيلية) إذْ استعار هذا المثل لتخرصاتهم وأحاديثهم المزخرفة الملفقة فشبه هيئة بطلانها وعدم جدواها وقيمتها بهيئة قوله: (ليست بنبع إذا ...) .

٥. عَجَائِباً زَعَمُوا الأيَّامَ مُجْفِلَةً عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفَارِ أوْ رَجَبِ

---

(١) خزانة الأدب للحموي: ٣٤٩/١ .

(٢) خزانة الأدب للحموي: ١٣٨/١ .

(٣) النظام لابن المستوفي: ١١/٢ .

٦. وخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ إِذَا بَدَا الكَوْكَبُ الْغَربِيُّ ذُو الذَّنَبِ
٧. وصَيَّرُوا الْأَبْرُجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً مَا كانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ
٨. يَقْضُونَ بِالأَمْرِ عَنْها وهِي غَافِلَةٌ ما دارَ في فَلَكٍ مِنْها وفي قُطُبِ
٩. لَوْ بَيَّتْ قَطُّ أَمْراً قَبْلَ مَوقِعِهِ لَمْ تُخْفِ مَا حَلَّ بِالأَوْثَانِ والصُّلُبِ

قوله: (عجائبا..) هذا البيت مرتبط بالبيت قبله، فقوله: (ليست بنبع إذا عدت ولا غرب) جملة اعتراضية، وهي (مثل) يدلل به أبو تمام على ما أراد من معنى كما ذكرنا، وقد أورده في بيت آخر بهذا المضمون بقوله: (١)

هيهاتَ أَبْدَى اليقينُ صفحتَهُ وبانَ نَبْعُ الفَخارِ مِنْ غَرَبِهْ

فتكون العبارة: (تخرصا واحاديثا ملفقة .. عجائبا..) وجاء نصب (تخرصا) على المصدر من معنى قوله: (صاغوه) في البيت قبله، ويجوز أن يكون حالا والأول أجود(٢). وعجائبا بدل من أَحاديثا .

وهذه التخرصات زعموا أن الأيام ستكشف عنها في صفر أو رجب. وفي قوله: (الاصفار) (الاستخدام) : وهو أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان...، (٣) إذ التعظيم من جانب الروم على ما ذكروه من الخرافات، والاستهزاء من ناحية الشاعر بأنها أصفار لا عدّ ولا قيمة لها، وشبَّه انحسار الأيام عنها بقوله: (زعموا... عنهن) بالنعام إذا أحسَّت بالخطر يحدق بها هربت مسرعة فانكشف ما تحتها، فحذف المشبه به واستعار ذلك للأيام (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، وفي قوله: (صفر الاصفار) (جناس مشتق).

ثم ذكر بعضا من هذه الخرافات التي أرهبوا بها الناس، بأن هناك أمراً عظيما ستقع الأضرار والأهوال فيه عند ظهور الكوكب المذنب في

(١) شرح الصولي لديوان أبي تمام : ٣٢٣/١ .
(٢) النظام: ١٠/٢ ، ينظر ما ورد فيه من قول الخارزنجي .
(٣) البرهان في إعجاز القران : ١٥٠ .

السماء من جهة الغرب، وجعلوا ما يجري في الكون من أحداث بفعل أبراج السماء الإثني عشر، فإذا ورد عليهم خبر في وقت الطالع فيه بُرج ثابت حقَّقوه، وان كان الطالع برجا منقلبا لم يحقِّقوه[1]. وذلك في قوله: (مرتَّبة ما كان مُنقلِباً أو غير مُنقلِب) وفيه (المطابقة) في قوله: (منقلبا – غير منقلب). وأنهم جعلوا أحوال هذه الأبراج وتقلباتها دستورا يحكمون به مصيرهم ومستقبلهم، متجاهلين قدرة الله عز وجل وتصريفه للكون، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وكل ذلك يجري وينسب لفعل الأبراج الدائرة في أفلاكها أو القطب الثابت منها؛ وهي لا تفعل ولا تدري ولا تعلم ما ينسب إليها من الأفعال.

ثم يقول: لو أن هذه الأبراج تكشف عن الأمر قبل وقوعه؛ لكان جديرا بها أن تُظهِر لهم أمر هذا الفتح الجلل الذي أطاح بهم وبصلبانهم وأوثانهم؛ فعلموه ودبَّروا له ما يدفعه عنهم؛ بخلاف ما جرى عليهم بسبب ما يؤمنون به من خرافات وضلالات نجمت عن اعتقادهم بفعل هذه الأبراج وهي قط لم تفعل. وفيه (المطابقة) بين (بّينت–وتخف) ولا عجب فالغرب المعاصر على الرغم من التطور العلمي والتقدم في مظاهر الحياة وبهجتها، إلاّ أنهم لا زالت تظهر من منجِّميهم بين الفينة والأخرى من الخرافات والترهات والأوهام ما يُروِّجون لها في صُحفهم وإعلامهم؛ وهناك منهم من يبني على ذلك مخاوفه أو آماله .

١٠. فَتْحُ الفُتوحِ تعَالى أَنْ يُحِيطَ بِـهِ نَظْمٌ مِن الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

انتقل في هذا البيت من الهجاء إلى المديح من غير تمهيد وهو النوع الثاني من التخلص الذي يدعى(الاقتضاب) الذي يصفه ابن حجه بقوله: ((وهو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر من غير تعلق بينهما كأنه استهلَّ كلاما آخر)) [2] وفي البيت (المقابلة) في قوله: (نظم من الشعر) أو

(١) ينظر: ديوان أبي تمام بشرح التبريزي: ٤٥/١ .

(٢) خزانة الأدب للحموي: ٣٢٩/١-٣٣١ .

(نثر من الخطب)، وكذلك (التفريق) إذ منع الفتح أن يحيط به شيء، ثم فرّق ذلك بين النظم أو النثر. و(المطابقة) بين (الشعر – والنثر)

١١. فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وتَبْرُزُ الأَرْضُ في أَثْوابِهَا القُشُبِ

أي انه فتح إنصاف وعدل يرضي الله تعالى فتتفتح له أبواب السماء، و(استعار) للأرض وهي في حللها الجديدة حلل النصر؛ السرور الذي يحصل للمرأة عند انتقالها إلى بيت الزوجية وهي في زينتها، وحذف المشبه به وترك من لوازمه (أثوابها القشب) الجديدة الزاهية. و(المجانسة) في (فتح–تفتح)، و(المطابقة) بين (السماء–والأرض).

١٢. يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ[1]

نادى هذه الوقعة بـ(بايوم..) تعظيما لها،و(استعار) لما حصل بها من أمنيات جسام عظيمة أصبحت واقعا وكان بها السرور والهناء؛ ضروع الشياه المملوءة بالحليب الطازج الكثير الذي يَسُرُّ أهله وتدوم الحياة به بقوله : (انصرفت ... الحَلَبِ)، (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد .

١٣. أَبقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإسلامِ في صَعَدٍ والمشركينَ وَدارَ الشِّرْكِ فـي صَبَبِ

لا زال مخاطبا ذلك اليوم بأنه رفع الله به شأن المسلمين وأذل المشركين ومواطنهم، وفيه (المقابلة) في قوله (بني الإسلام في صعد – ودار الشرك في صبب)؛ فالفاصلتان متساويتان في الوزن دون التقفية؛ وفي ذلك تفعيل لإيقاع القصيدة، وفيه (المطابقة) بين (صعدٍ– وصبب) و(الإسلام–والشرك)

١٤. أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَن تُفتَدَى جَعَلُوا فِدَاءَهَا كُلَّ أُمٍّ مِنْهُمُ وَأَبِ

أراد أن يجسِّد أهمية مدينة عمورية للروم فاستعار لها الأمومة التي تجمعهم وكأن ما حولها من المدن تابع لها متأثر بها تستحق أن يفتدوها بأمهاتهم وآبائهم (استعارة تصريحية)، وفيه (المطابقة) بين (أمّ–وأب)، و(التكرار) في (أمٍ) لاختلاف تعلقها.

---

(١) وفي شرح الصولي:١٩١/١وردت:عنك المنى. كذا في النظام: ١٨/٢ .

١٥. وبَرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُها كِسرَى وصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَرِبِ

قوله: (برزة الوجه) أي: المرأة التي تخاطب الرجال ولا تَستَتِرُ منهم[١]؛ وفي ذلك (كناية) عن شموخ المدينة وعنفوانها ومَنَعَتِها التي أعجزت كسرى وأبا كرب من فتحها، و (كنّى) بقوله: (أعيت رياضتها) عن كثرت الحروب التي دارت حولها لأجل قهرها، وفي قوله: (صدت صدوداً) (كناية) عن تعزُّزها وعدم مبالاتها بالأعداء. وهذه الأوصاف تدل على أنها عصية على من تعرض لها . وفي البيت (المطابقة) بين (برزة – وصدّت).

١٦. بِكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ ولا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوَبِ

١٧. مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ شَابَتْ نَواصِي اللَّيَالي وَهْيَ لَمْ تَشِبِ[٢]

(كنّى) عن قهر عموريّة للأعداء طول الزمن بقوله: (بكر فما..) فلم يخترق حصونها احد منهم، و(كنّى) عن تحصنها وارتفاعها بقوله: (ولا ترقت إليها..) أي إن النوائب والرزايا لم تنلها. و(كنّى) عن طول العهد بقهرها للجيوش ومنعتها وتماسك أبنيتها وأسوارها بقوله: (من عهد..) و(استعار) العجز والشيخوخة والشيب الذي يصيب الإنسان، إلى الليالي بقوله: (شابت نواصي الليالي) التي ظهر عليها الهرم من كثرة عددها وانصرامها، و(استعار) الفتوة لـ(عمورية) بقوله: (وهي لم تشب) إذ لم تظهر عليها علامات الوهن ولم تؤثر بها عاديات الزمن على الرغم من قدمها. وفي البيت(المطابقة) في قوله: (شابت – لم تشب)

١٨. حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللهُ السِّنِين لَهَا مَخْضَ البَخِيلَةِ كانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

(استعار) للثراء وكثرة الأموال والنعمة التي تنعم بها مدينة عمورية قوله: (مخض الله السنين لها) إذ شبَّه الاتجار بالأموال وجنائها طول السنين تلك، بمخض اللبن. و(استعار) لاكتناز الأموال وكثرتها قوله:

---

(١) شرح التبريزي: ٤٧/١ .

(٢) وفي النظام: شابت قرون : ٢١/٢ .

(مخض البخيلة) إذ إن البخيلة تبالغ في تحريك اللبن وتبذل الجهد برويَّة وبحرص لتستقصي ما فيه من الزبد، و(استعار) لكثرة الغنائم والأموال التي استولى عليها المعتصم قوله: (كانت زبدة الحقب) أي إنها نمت وتكدست واكتُنِزَت على طول الحقب والسنين ثم جعلها الله نصيب هذا السلطان. ويمكن جمع تلك الاستعارات لتكون (استعارة تمثيلية) فتقول: استعار هيئة مخض الحليب لمدة طويلة بحرص وجدية كمخض البخيلة التي تستقصيه برويّة لتكون الزبدة في النهاية بغاية الكثرة والضخامة، استعار ذلك لهيئة السعي في الاتجار وجمع الأموال وتكديسها بحرص وعناء لسنين طويلة لتكون في النهاية ثروة هائلة كمحصلة لتلك الجهود .

وقوله: (مخض البخيلة) يمكن أن يكون (مثلا) يطلق لمن يسعى في جمع الأموال ويبخل بها على نفسه لأجل تكثيرها وتكديسها واكتنازها وفي البيت (التكرار) في قوله : (مخض) لاختلاف تعلقها .

١٩. أَتَتْهُمُ الكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً مِنْها وكانَ اسْمُها فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

٢٠. جَرَى لَهَا الفأْلُ بَرْحاً يَوْمَ أَنقِرَةٍ إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ والرِّحَبِ

٢١. لمَّا رَأَتْ أُخْتَها بِالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِن الجَرَبِ

أتى الرومَ الغمُّ الشديد الذي خيّم عليهم كسواد الليل بسقوط عمورية بيد المسلمين؛ فحيرهم لأنها في الشدائد كانت مأواهم وملجأهم وكشّافة كروبهم، وفي البيت (الافتنان): وهو أن يأتي بفنين متضادين؛ إذ إن عمورية كانت موضع هنائهم وسعادتهم فهي في موضع (المدح) في قوله: (وكان اسمها فرّاجةَ الكرب)، والغمِّ والحيرة بسبب سقوطها فهي في موضع (الذم) بقوله: (أتتهم ...منها) وإن فتح مدينة أنقرة التي غادرها المسلمون بعد فتحها خالية الساحات وحشة الرحاب؛ كانت فأل شؤم لعمورية، إذ إن الخراب لحقها بعد خراب أنقرة، وكان لها أسرع من عدوى مرض الجرب المعروف، وفي قوله: (وحشة السّاحات والرِّحَبِ)(كناية) عن خلوها وأَسر أمرائها وهزيمة جيشها، و(تشابه

الأطراف) في قوله: (خربت-كان الخراب) و(رد العجز على الصدر) في قوله: (الكربة) ثم قفّى بـ (الكُرب)، و(الطباق) في (كربة-فرّاجة)، و(جناس قلب البعض) في (برح-رحب)

٢٢. كَمْ بَيْنَ حِيطَانِهَا مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ قَانِي الذَّوَائِبِ مِنْ قَانِي دَمٍ سَرِبِ

٢٣. بِسُنَّةِ السَّيْفِ والخطِّيِّ مِنْ دَمِهِ لا سُنَّةِ الدّينِ والإسْلَامِ مُخْتَضِبِ [١]

كم هنا للكثرة، أي إن كثيرا من الفرسان الأبطال بين حيطان عمورية تخضَّبت ذوائبهم – وهو الشعر المنسدل من وسط الرأس إلى الظهر[٢]- بلون شديدة الحمرة من الدم المتدفق، وفيه (التكرار) في (قاني الذوائب-وقاني الدم) لاختلاف المتعلق وقوله: (قاني الذوائب) (كناية) عن الجراح. وإن الشعر المختضب هذا كان بالدم بفعل السيف ؛ لا بالحنّاء التي سن الرسول (ﷺ) الاختضاب بها . (والمقابلة) في قوله: (سنة السيف والخطي) و(سنة الدين والإسلام) .

٢٤. لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلنَّارِ يَوْماً ذَلِيلَ الصَّخْرِ والخَشَبِ

٢٥. غَادَرْتَ فيها بَهِيمَ اللَّيْلِ وهُوَ ضُحىً يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

٢٦. حَتَّى كَأَنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عَنْ لَوْنِهَا وكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

٢٧. ضَوْءٌ مِنْ النَّارِ والظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ في ضُحَىً شَحِبِ

٢٨. فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وقَدْ أَفَلَتْ والشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا ولَمْ تَجِبِ

وصف الحرائق التي صاحبت المعارك وصفاً دقيقاً وجسَّدها تجسيداً؛ فقال مخاطبا أمير المؤمنين المعتصم بالله القائد العام للمعارك: إنك تركت الصخر والخشب يومها وقودا للمعركة تأكله النار فصار ذليلاً؛ بعد أن كان بتحصينه لأسوار عمورية عزيزا؛ فشبَّه قوله: (للنار يوما.. الخ البيت) بخذلان جيش الروم وانهياره واستسلامه، وحذف المشبه به وترك

(١) ورد في النظام: ٢/٢٧-٢٨ وشرح التبريزي: ١/٥٢: من أني دم، بسنة السيف والحنّاء..

(٢) أساس البلاغة: ذأب: ٢٣٦ .

من لوازمه قوله: (ذليل)، واستعار ذلك عن انهيار المدينة وأهلها (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد .

ثم بالغ بالوصف فقال: لقد جعلت فيها ظلام الليل الملبَّد كأنه الضحى، وقد تبدد ظلامه بتأجج لهب النيران وسط المدينة فكان لشدته؛ أنواره كإشراقه شمس الضحى وذلك بقوله: (غادرت ... ضحى) وفيه (المبالغة)، و(التشبيه البليغ) بقوله: (وهو ضحى)، و(استعار) قوة المارد التي تقهر الأعداء وتهزمهم إلى (اللهب) الذي طرد ظلام الليل بقوله: (يشله وسطها صبح من اللهب)، وحذف المشبه به وترك من لوازمه قوله: (يشله) أي يطرده. (استعارة مكنية) و(طابق) فيه بين قوله: (غادرت – ويشله) وبين (الليل والصبح) .

ثم (شبَّه) بالبيت الذي يليه قوة أنوار الحرائق؛ بالقمصان والأردية التي تخلَّت لشدة الأنوار عن ألوانها الداكنة إلى الألوان الزاهية الناصعة،وإن هذه الأنوار بالغة الصمود توحي كان الشمس توقفت تجود بأشعتها وضيائها فلا تغيب، وفي هذا البيت (الغلو) وهو: إفراط الوصف بالمستحيل وقوعه عقلا .

ثم (كنّى) عن استمرار الحرائق مدة طويلة بقوله: (ضوء من النار.. الخ البيت) أي: إن ضوء النار يجعل الليل نهاراً، وظلمة الدخان تُصيِّر الضحى شحبا[1] أي متغيرا، وهذا التناوب في التعبير يدل على طول المدة، وفيه (المقابلة) بين قوله: (ضوء من النار، وظلمة من دخان) و(المطابقة) في قوله: (ضوء–وظلمة، والظلماء–والضحى) .

ثم بيَّن علاقة الشمس بتلك الحرائق فقال: إن الشمس في الظاهر طالعة من لهب النار وقد غابت على الحقيقية؛ وإن ضوءها ساقط في النهار بسبب الدخان وهي لم تسقط في الحقيقة في مغيبها .وفيه (المطابقة)

(١) ينظر: شرح التبريزي: ٥٤/١ .

بين (طالعة–وواجبة ، وأَفلَت– ولم تجبِ) ، و(الترصيع) ((وهو: عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو من الفقرة في النثر بلفظة على وزنها ورويها وإعرابها غالبا في العجز من البيت أو الفقرة)) [1] وذلك بقوله: (فالشمس طالعة من ذا – والشمس واجبة من ذا) و(التكرار) في (الشمس) .

٢٩. تَصَرَّحَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الْغَمَامِ لَها عَنْ يَوْمِ هَيْجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُبِ

٣٠. لم تَطْلُعِ الشَّمْسُ فيهِ يَوْمَ ذَاكَ على بانٍ بِأَهْلٍ ولَم تَغْرُبْ على عَزَبِ

(شبّه) تكشف الدهر وتغيّر الأحوال؛ بتكشف الغمام، بقوله: (تصرَّح الدهر تصريح الغمام لها) (تشبيهاً بليغاً)، وذلك عن يوم من الأهوال والمعارك لقهر الظلم والطغيان، فكان جزاؤه يوما طاهرا للمسلمين للفتح الجليل، وجنبا للروم لما أصابهم من القهر والسبي، و(طابق) في قوله: (طاهر –وجنب). ثم وصف ذلك اليوم بان الشمس لم تطلع فيه على بانٍ بأهله من الروم لقتله، ولم تغرب فيه على عزب من جيش المعتصم لكثرة السبي، وفيه (المقابلة) بقوله: (لم تطلع على بان بأهل–ولم تغرب على عزب)، و(المطابقة) في قوله: (تطلع –وتغرب، بان بأهل –عزب) .

٣١. مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعمُوراً يُطِيفُ بِهِ غَيْلاَنُ أَبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِها الخَرِبِ

٣٢. ولا الْخُدُودُ وَقَدْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلى ناظِرٍ مِنْ خَدِّها التَّرِبِ[2]

٣٣. سَمَاجَةً غَنِيَت مِنَّا العُيُونُ بِها عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

٣٤. وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تبقى عَوَاقِبُهُ جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ [3]

(غيلان): وهو ذو الرمّة بن عقبة ، يقول: ما ربع ميَّةَ المعمور الذي أكثر ذو الرمّة وصف حسنه وشُغِفَ به بأحسن أو أجمل من ربى ربوع

(١) ينظر: شرح الكافية البديعية: ١٩٠.

(٢) وفي النظام: وإذ ادمين: ٣٦/٢، وفي شرح الصولي: ولو ادمين : ١٩٦/١ .

(٣) وفي شرح التبريزي: تبدو عواقبه: ٥٨/١ .

عمورية الخربة في نظر عيون فاتحيها من المسلمين؛ لأَن خرابها كان من أَعزَّ أمنياتهم.

وفيه (التفريع): وهو أن يصدِّر المتكلم أو الشاعر كلامه باسم منفي(بما) خاصة ثم يصف الاسم المنفي بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن أو القبح ثم يجعله أصلا يفرِّع منه جملة من جار ومجرور متعلق به تعلق مدح أو هجاء أَو ... يفهم من ذلك مساواة المذكور بالإِسم المنفي الموصوف)) [1] فالأصل قوله: (ماربع...غيلان)وفرَّع بقوله: (أبهى ...الخ)، و(المطابقة) في (معمورا– والخرب) ، و(التكرار) في (ربع) لاختلاف المتعلق. وعطف عليه البيت بعده بالسياق نفسه؛ فقال: ولا الخدود المشرقة التي تتورد بالحمرة عند الخجل الذي تتعرض له المرأة الجميلة، بأشهى في نظر الفاتحين من وجه عموريّة المعفَّر بالتراب، وفيه (التفريع) فالأصل قوله: (ولا الخدود..خجل) والتفريع في قوله: (أشهى إلى ... الخ البيت). و(استعار) لربوع المدينة الخدود، إذ شبَّه المدينة بالمرأة فحذف المشبه (المدينة) واستعار لربوعها (خدي المرأة) اللذان يمثلان الوجه الذي هو عماد جمالها .

ثم يضيف إلى ذلك معنى آخر في البيت بعده، إذ يقول إِن قبح عمورية وشناعتها بسبب الدمار الذي حل بها؛ كان حسنه وجماله في عيون الفاتحين يفوق كل حسن يسرّ الناظرين أو جمال يأخذ بالألباب، لأَن تخريبها وكسر شوكة الطغاة بها كان غاية عزيزة لذلك السلطان وجنده، وفيه (المطابقة) في قوله: (سماجة–وحسن). ثم وصف حسن منقلب المسلمين بأنه سليم العواقب بسبب سيطرتهم على المدينة، وأَن السرور والنشوة قد حصلت لهم نتيجة لسوء منقلب الكافرين الخاسرين،

(١) حسن التوسل: ٢٩١، خزانة الأدب للحموي: ٨٢٨/٢ .

وفيه(المقابلة) في قوله: (حسن منقلب–وسوء منقلب) و(المطابقة) في (حسن–وسوء) .

٣٥. لم يَعْلَمِ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ لَهُ العَواقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ والقُضُبِ[١]

٣٦. تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ للهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَغِبِ[٢]

٣٧. ومُطْعَمُ النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ يَوْماً ولاَ حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

٣٨. لَمْ يَغْزُ يَوْماً ولَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلاَّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ[٣]

٣٩. لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الْوَغَى لَغَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

٤٠. رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا ولَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ

لم يعلم الكفار في عمورية كم من الأزمنة أُحيطوا بأعدائهم بين الرماح والسيوف لغرض الإيقاع بهم، والتعبير يدل على الكثرة، وفي قوله: (لم يعلم الكفر) (مجاز عقلي) من الإسناد إلى المصدر: (الكفر) فالأصل أن يقول: (لم يعلم الكافرون)، وفي قوله: (أعصر كمنت) (مجاز عقلي) من الإسناد إلى الزمان وهو لم يفعلها، بل كان ذلك واقعا فيه على سبيل المجاز، ثم المدينة لم تكترث بذلك ولم تحسب له حسابا مما جعلها لا تحصيهم؛ وفي ذلك (كناية) عن منعتها وعظم حصونها.

ولكن الذي خرَّبها وأوقع بهم وغلبهم كان تدبير هذا السلطان؛ الذي كان معتصما بالله مراقبا له خائفا منه في تصرفاته، متقيه يتقرب إليه عز وجل في أعماله، فكان بذلك منتصرا بالله تعالى، وفيه (التشطير): وهو أن يجعل كلاً من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها[٤]. وذلك في قوله(معتصم، منتقم–ومرتقب، مرتغب) و(الحذف) في قوله: (مرتغب) أي: في الله، و(التورية) إذ المعنى القريب لقوله: (معتصم بالله) صفة هذا

(١) ورد في النظام : لو يعلم ... أعصر خبأت: ٣٧/٢، وفي شرح التبريزي: لو يعلم : ٥٩/١ .

(٢) ورد في شرح الصولي : مقترب في الله مرتقب : ١٩٧/١.

(٣) ورد في النظام : ٤٠/٢ وفي شرح الصولي: ١٩٧/١: لم يرم .

(٤) الإيضاح: ٢٢٤ .

السلطان لأنه بصدد ذكر صفاته في هذا البيت، والبعيد لقبه الذي عرف به و(تكرار) لفظ الجلالة (الله) لزيادة التعلق به والتنويه بعظمته.

ثم أضاف لتلك المدائح أن المعتصم الفاتح كان منصورا كثير الغنائم ولا تخطئ أسنته ولا يسلم منها من تسربل بدرع أو احتمى بحصن، وفي قوله: (مطعم النصر) (كناية) عن حسن الحظ، و(مجاز عقلي) وفيه الإسناد في النسبة الإضافية من إضافة اسم المفعول إلى المصدر ؛ ولا يُطعم النصر بل يأتي، وقوله: (لم تكهم أسنته..)(كناية) عن الإصابة وحسن التدبير . وفي البيت (الموارِدة) وهو أن يتوارد الشاعران على بيت أو بعض بيت بلفظه ومعناه)[١] وذلك في قول أبي تمام (ومطعم النصر)، وقول علقمة بن عبدة الفحل[٢]:

ومطعم النصر يوم النصر مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

فضلاً عن مدحه بأنه منصور بالرعب لمهابته عند الأعداء، وفيه (القَصْرُ) بالنفي والاستثناء في قوله: (لم ينهد... إلاّ تقدمه..)، وفي قوله: (جيش من الرعب) (كناية) عن عظمته في قلوب أعدائه وخشيتهم بأسه . وفيه (الاقتباس): (وهو أن يضمن الكلام شيئا من القران أو الحديث لا على انه منه))[٣] وذلك بقوله: (إلا تقدمه جيش من الرعب) من قوله عليه الصلاة والسلام: ((نصرت بالرعب شهرا أمامي وشهراً خلفي)) [٤] .

وفي البيت بعده تتكرر المعاني نفسها بصيغة أخرى؛ إذ يقول إن المعتصم إذا توجَّه إلى الأعداء بمفرده فانه لشجاعته وإقدامه وعظم شأنه كأنه جيش صخب . وفيه: (الموارِدة) مع أبي محجن الثقفي بقوله:[٥]

---

(١) خزانة الأدب للحموي: ٣٨٠/٢ .

(٢) ينظر: شرح الصولي لديوان أبي تمام: ١٩٧/١، والنظام: ٣٩/٢ .

(٣) الإيضاح : ٢٣٤ .

(٤) الخصائص الكبرى: ١٩٣/٢-١٩٤ .

(٥) ينظر: خزانة الأدب للبغدادي: ٤١٣/٨ .

لمـــا رأينا خيلاً محجـــلة وقــوم بغــرٍ في جحفلٍ لجبِ

وذلك في قوله: (في جحفل لجب). و(الجنـــاس التـــام) فـــي قولـــه: (جحفلاً–جحفلٍ) الأولى للجيش العظيم، والثانية للرجـــل عظـــيم الشـــأن، و(استعار) بقوله:(رمى بك الله برجيها فهدمها) إلى الذي يرمى بالمجـــانيق على المدينة وأسوارها بأنه بهمَّةِ القائد ورعايته وبمباشرته؛ مصحوبا بنيَّته الصالحة الخالصة الممزوجة بالتوكل على الله القوي العزيز؛ فكـــان ذلـــك عبارة عن صور متلاحكة حسية ومعنوية؛ حصل بها الهدم للأبراج غيـــر المتوقع ؛ وكان ذلك كلّه من أسباب النصر؛ (استعارة تمثيليـــة) منتزعـــة متعددة، وفيه (الاقتباس) من قوله تعالى: (وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكـــنَّ اللهَ رَمَى) [الأنفال:١٧] . وفي تقديم الجار والمجرور (بك) فـــي الموضـــعين (للتخصيص)، وكان عند الروم لهذين البرجين خصوصيّة وقدسيّة يلجأون إليهما إذا نابتهم نائبة، كما ورد في النظام[١] .

٤١. مِنْ بَعْدِ ما أَشَّبُوهَـــا وَاثِقِينَ بِـــــهَا واللهُ مِفْتاحُ بَـــابِ المَعْقِلِ الأَشِـــبِ
٤٢. وقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لا مَرْتَـــعٌ صَـــدَدٌ للسَّارِحِينَ وليْسَ الوِرْدُ مِنْ كَـــثَبِ
٤٣. أَمَانِياً سَلَبَتْهُـــمْ نُجْـــحَ هَاجِسِـــها ظُبىَ السُّيُوفِ وأَطْرَافُ القَنَا السُّلُبِ
٤٤. إنَّ الحِمَامَيْنِ مِنْ بِيضٍ ومِـــن سُمُـــرٍ دَلْوَا الحَيَاتَيْنِ مِن مَاءٍ ومن عُشُـــبِ

(استعار) من قوله: (أَشَّبوها) وهو التفاف أغصان الأشجار حتـــى لا مجاز فيه؛ إلى حشود الرجال برماحهم وسيوفهم حـــول مـــدينتهم للـــدفاع عنها؛ فضلا عن منعة حصونها الأمر الذي طمأنهم على سلامتها؛ وذلـــك من قوله: (واثقين بها)، ولكن الفاتحين ربانيون يد الله معهم ، ومن قولـــه تعالى: ((وَظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُم حُصُونُهم من اللهِ فَأَتاهُمُ اللهُ مِـــنْ حيـــثُ لـــم يَحْتَسِبوا وقَذَفَ في قُلُوبِهمُ الرُّعْبَ يُخْرِبونَ بُيُوتَهمُ بأَيْديهم وأَيْدي المؤمنين فاعتبروا يا أوْلـــي الأبصـــارِ)) [الحشـــر:٢] (الاقتبـــاس) لقولـــه: (والله

(١) النظام: ٤١/٢ .

مفتاح..الخ) . وفيه (رد العجز على الصدر) في قوله: (أشّبوها) والتقفية بقوله: (الاشب) .

ومما زاد في اطمئنان الروم قول قائدهم لا تخافوا الغزاة فلا مرعى ولا ماء بالقرب منهم فإذا ضاق بهم الأمر انصرفوا عنكم، وفيه (المماثلة) في (صدد، وكثبِ) فكلاهما على وزن (فَعَل)، وفيه(الجمع): وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد[1]. وذلك في قوله: (لا مرتع، وليس الورد) بالقرب منهم .

ثم بيَّن إن هذه الخواطر والأمنيات التي بنوا عليها آمالهم، سلبتها منهم فِعال السيوف المرهفة والرماح الطويلة، فهنا الفعل والقوة تتكلم. وفيه (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (سلبتهم)، والتقسيم في قوله: (ظبى السيوف، وأطراف...)و(رد العجز على الصدر) في قوله: (السلب، وسلبتهم). ثم يؤكد هذا المعنى فيقول: إن الحِمامَيْنِ أي القتل الذي يحصل للروم بالسيوف والرماح، هما سببا حصول المسلمين الغزاة على الماء والعشب لإدامة حياة مواشيهم، وفيه (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (إن الحمامين) والتقسيم في قوله: (من بيض، ومن سمر)، والجمع في قوله: (دلوا الحياتين) والتقسيم في قوله: (من ماء، ومن عشب)، وفيه(المماثلة) بين قسمي البيت: (إن الحمامين...) و(ودلوا الحياتين...).

٤٥. لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ كَأْسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

٤٦. عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وعَنْ سَلْسَالِها الحَصِبِ [٢]

٤٧. أَجَبْتَهُ مُعْلِناً بالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً ولَوْ أَجَبْتَ بغَيْرِ السَّيفِ لَمْ تُجبِ[٣]

٤٨. حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّركِ مُنْعَفِراً ولَم تُعَرِّجْ علَى الأَوْتَادِ وَالطُّنُبِ

---

(١) خزانة الأدب للحموي: ٢/٢٢٦ .

(٢) ورد في النظام: ٢/٤٦: حماك حر .

(٣) ورد في شرح الصولي: ١/١٩٩: أجبته معلما .

قال الصولي: ((قوله: (لبيت صوتا زبطريا) معناه: إنه بلغ المعتصم بالله إنه أغير على زبطرة، فاخذ العدو سبيا فصاحت امرأة منهم ((وامعتصماه)). فبلغه ذلك. فقال: لبيك لبيك! فخرج من وقته، وكان سبب فتح عمورية، وهرقت كأس الكرى، هذا مثل)) [1] .

خاطب الشاعر السلطان القائد بقوله: (لبيت صوتا زبطريا) لم يكن ذلك الصوت صوت أمير أو قائد أو كبير قوم يتوجب على السلطان إجابته، بل كان صوتا مغمورا لا يُؤبه له، فكانت استجابة المعتصم له وتلبيته (كناية) عن مروءته وشهامته وغيرته لانتهاك الأعراض والبلاد، ودليلا على أنه جدير بمسؤولياته القيادية أمام الله ورعيته، وأن إهراقه للملذات حوله(كناية)عن حماسته وهمته العالية الصادقة في إجابته من استغاثة. لا كما يجري اليوم إذ إن القادة لم يكتفوا بعدم المبالاة بالأعراض ومصير البلاد؛ بل تآمروا مع الأعداء على بلدانهم وشعوبهم ، فالفرق جدّ بعيد...

قوله: (هرقت له كأس...) (استعار) الكأس الذي يتلذذ به في شرابه، لمأواه الذي يستمتع به في نومه، والى ثغور الحسان اللاتي يتوددن له فيسقينه من رضابهن لمؤانسته. ويمكن أن نقول إن قوله: (هرقت له كأس...) (استعارة تمثيلية) إذ إنه استعار اهراقه للملذات، وإعراضه عن النساء. إلى معاناته عند لقاء الاعداء، وآلامه في معارك الجهاد، فالمناجزة ليست لعبة، بل يجري عليه ما يتوقعه المقاتل في ساحة الوغى، وفي البيت (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (هرقت له) والتقسيم في قوله: (كأس الكرى- ورضاب..) .

ويعاود الشاعر الوصف بأسلوب آخر في البيت بعده فيقول: (عداك..) أي: آل بك أو صرفك-ما يجري في الثغور التي يتوقع أن

(١) شرح الصولي: ١٩٩/١ .

يخترق منها الأعداء البلاد؛ وما يقع من آلام وضيم وقهر منهم على ساكنيها؛ بنخوتك لهم ووقوفك صفا معهم–صرفك ذلك عن الاستمتاع ببرد ثغور الحسان وعن رضابهن. إذ إنه (استعار) من قوله: (برد الثغور وعن سلسالها الحصب) أي: الماء البارد العذب الذي يجري على الحصباء الناعمة التي تزيده نقاءً وعذوبه، إلى رضاب الحسان الذي يستقيه من بين أسنانهن التي تزهو كاللؤلؤ (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد . و(المطابقة) بين (حر الثغور–وبرد الثغور) إذ المفارقة بعيدة بين من يكابد العدو؛ وبين من يتلذذ برضاب الحسان. و(الجناس التام) في (الثغور: جمع ثغور العدو–والثغور: أفواه النساء) وفيه فضلا عن المعاني مضاعفة إيقاع أبيات القصيدة .

ثم خاطبه إنك أجبت النداء معلنا النفير بالسيف المتجرد ماضيا بعزم ماضٍ في إغاثتك، ولا جدوى من إجابتك بغير ذلك. وفي البيت (رد العجز على الصدر) أو (التصدير كما ورد عند ابن رشيق) في قوله: (أجبته في صدر البيت– وأجبت في أول العجز ثم قفّى بـ(تجب) و(التكرار) في قوله: (أجبت)، و(الاستخدام) في قوله: (منصلتا) فيمكن أن تكون حالا من تاء الفاعل في : (أجبته) تعود إلى المعتصم، أو حال من: (السيف) فنقول: السيف صلتاً ماضياً، أو المعتصم ماضيا فيما قصد، و(المطابقة) في قوله: (أجبت–ولم تجب، وبالسيف–بغير السيف) .

ثم خاطبه بأنك استهدفت دعامة حصون دولة الروم فحطمته وتركته يتخبط بالتراب، فاستعار بقوله: (حتى تركت عمود الشرك منعفرا) أي إنه حطم عمود الخيمة وألقاه أرضا فانهارت بذلك على مَنْ فيها، (استعار) ذلك لمدينة عمورية ملجأ الروم ومأواهم ومخزن أرزاقهم ففتحها وحرقها وحطمها، فَشَلَّ بذلك قدرة الروم على القتال وسبى وقتل منهم الكثير (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد ، ثم إنه لم يلتفت إلى القرى والقصبات فإنها بحكم الساقطة، إذ (استعار) لها قوله: (ولم تعرج على

الأوتاد والطنب) أو يكون ذلك (استعارة) إلى الغنائم والأموال التي لم يلتفت إليها ولم يكترث بها لاستغنائه عنها، و(الجمع) في قوله: (عمود، والأوتاد، والطنب) إذ بها تقوم الخيمة .

٤٩. لَمَّا رَأَى الحَرْبَ رَأْىَ العَيْنِ تُوفَلِسٌ والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

٥٠. غَدَا يُصَرِّفُ بِالأَمْوالِ جِرْيَتَها فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيارِ والحَدَبِ

٥١. هَيْهَاتَ!زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ عَن غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَزْوِ مُكتَسِبِ

٥٢. لمْ يُنْفِق الذَّهَبَ المُرْبِي بِكَثْرَتِهِ على الحَصَى وبِهِ فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

٥٣. إنَّ الأُسُودَ أُسُودَ الغابِ هِمَّتُها يَوْمَ الكَرِيهَةِ في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ[1]

عندما رأى قائد الروم (توفلس) الذي غار على زبطرة أن الحرب التي فيها الثوران والغضب وصرف الأموال قد وصلت إليه، وفي البيت (رد العجز على الصدر) في موضعين: (الحَرْب–والحَرْب، الأول في حشو الصدر، والثاني في أول العجز ثم قفّى بـ (الحَرَب))، و(الجناس المحرّف) في (الحرب: القتال – والحَرَب : الغضب) أراد توفلس أن يَصْرِف جريتها أي: تبعات الحرب عنه بإرسال الأموال والهدايا لاسترضاء المعتصم ليكف عن حربه، إلاّ أن المعتصم ردّها عليه وكان كالبحر غطّى توفلس بالرجال ومعدات القتال التي تتوالى كالسيول الجارفة. (استعار) قوله:(فعزه البحر...) أي: سعة وضخامة البحر وتوالي أمواجه العاتية المتتالية، إلى عظمة القائد المعتصم وجيشه العرمرم؛ الذي سحق جيش الروم وقيادته ووطأهم ، (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد .

ثم يقول: بَعُدَ عن أمانيِّهم الثبات فضلاً عن النصر، إذ إن فعل جيش المعتصم بهم بمثابة تزلزل الأرض من تحتهم، ذلك لأَن هذا القائد لم يأت طامعاً بأموالهم بل لإرساء العدل والأمان لتلك الشعوب؛ محتسبا ذلك لله رب العالمين فنصره على طغاتهم الطامعين. (واستعار) بقوله: (زعزعت

(١) ورد في شرح التبريزي: ٦٦/١: اسود الغيل .

الأرض الوقور به) أي بتوفلس وقواته، وذلك كأن الأرض التي حملتهم واستقروا عليها قبل القتال، قد تصدَّعت بعده تحتهم فابتلعتهم ؛ إشارة إلى سحقهم وانهيارهم؛ (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، وفي البيت (التسهيم): ((وهو أن يكون ما يتقدم من الكلام دليلا على ما يتأخر منه أو العكس))[1] أي إن قوله: (زعزعت الأرض الوقور به) دليل عظمة فعل جيش الغزاة المشار إليه بقوله: (عن غزو...)، و(التسجيع) ؛ في المصراع الثاني في قوله: (محتسب–مكتسب) وفيهما (الجناس المضارع) أيضا، و(الافتنان) إذ هجا في الشطر ومدح في العجز .

ويخاطب الشاعر توفلس: بأَن المعتصم لم ينفق الذهب الذي يفوق الحصى كثرة لأجل الجهاد؛ وبه فقر إلى ذهبك الذي تريد أن ترشيه به وتثني عزمه عن غزو بلادك؛ وردعك عن غيك وطغيانك وظلمك؛ وفيه(التسهيم) بقوله: (لم ينفق... على الحصى) دليل على عدم حاجته بقوله: (وبه فقر إلى الذهب)، وفي البيت: (رد العجز على الصدر) في قوله: (الذهب في حشو الصدر ، والتقفية بقوله : الذهب) وكذلك (التكرار) لاختلاف العائد؛ إذ (الذهب) الأول يعود إلى المعتصم؛ والثاني يعود إلى توفلس. ثم بيَّن إن همة الأسود وغايتها من النزاع أكل الفريسة لا سلب ثيابها، فاستعار بقوله: (إن الأسود... يوم الكريهة) إلى المعتصم وجنده بأنهم شجعان بواسل همتهم رفيعة وغاياتهم نبيلة، واستعار بقوله: (المسلوب لا السلب) إلى توفلس وجنده الذين قَصَدَهم المعتصم بالتأديب؛ لا التطلع إلى أموالهم أو هداياهم، أو ما آلت إليه أموالهم كغنائم بعد النصر (استعارة تمثيلية)، و(الجناس المشتق) في قوله: (المسلوب–والسلب).

٥٤. وَلَّى وقَدْ أَلجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ في صَخَبِ[2]

(١) البرهان في إعجاز القران: ١٤٥.

(٢) ورد في النظام: ٥/٢: خلفها الأحشاء .

٥٥. أَحْذَى قَرَابِينَه صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجى مَطَاياهُ مِـــن الهَرَبِ[١]
٥٦. مُوَكِّلاً بِيَفَــاعِ الأَرْضِ يُشرِفُـــهُ مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ[٢]
٥٧. إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ أَوْسَعْتَ جاحِمهَا مِــنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

ولى توفلس هارباً واجماً قَرْقَرَ البطن صاخب الأحشـــاء مـــن الفـــزع والهلع الذي أصابه من شجاعة وبأس المعتصم وجيشه. وفي قوله: (وقـــد الجم الخطي منطقة) (كناية) عن شدة القتال وبسالة المقـــاتلين المســـلمين. وقوله: (بسكته–...الخ)(كناية) عن الخور والجبن والخوف لقائـــد الـــروم، و(طابق) بين كلمتي (سكتة–وصخب) .

ثم وصفه بأنه أَسلَم حاشيته ومقرَّبيه إلى نوائـــب الـــدهر وصـــنوف الهلاك؛ وولّى يحثّ أسرع مطايا النجاة من أَجل الهرب. تاركا من حرسه الهاربين معه في الأماكن المرتفعة بعـــده مـــن يترصـــد طلائـــع جـــيش المعتصم؛ خوفاً وفرقا منهم لا سرورا لاستقبالهم . وفيـــه(المماثلـــة) فـــي قوله: (من خفة الخوف–من خفة الطرب) و(التكرار) في (خفة) لاخـــتلاف العائد، و(التسهيم) إذ إن قوله: (موكلا...يشرفه) دليل على خوفه بقولـــه: (من خفة الخوف...الخ البيت).

ثم يخاطب المعتصم قائلا: إِنْ يَعدُ توفلس من أتون هذه الحرب عَـــدْوَ الظّليم– وهو ذكرُ النعام الموصوف بالسرعة الفائقة–وفيه (التشبيه البليـــغ) بقوله: (يعدُ–عدو الظليم)؛فلأنك أوسعت نارها حطبا من قتلاه، وهيجتهـــا بكثرة فرسانك ومقاتيلـــك وَعُـــدَدِهم، وفيـــه(التســـهيم) إذ إن قولـــه: (إِنْ يَعْدُ...الظليم) دليل شدة استعارِ الحرب بقوله: (فقد أوسعت...الخ البيـــت) فالسرعة الفائقة لعَدْوِ توفلس في صدر البيت، دليل على تـــأجج الحـــرب وشدَّة استِعارها في عجزه .

(١) ورد في شرح الصولي: ٢٠٢/١: بحيث اخفى مطاياه .
(٢) ورد في شرح الصولي ٢٠٣/١: بيفاع الأرض يَشْرَفُهُ .

٥٨. تِسْعُونَ أَلْفاً كَآسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمارُهُم قَبْـلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ[١]
٥٩. يا رُبَّ حَوْبَاءَ لـمَّا اجْتُثَّ دابِرُهُم طابَت ولَوْ ضُمِّخَتْ بالمِسْكِ لم تَطِبِ
٦٠. ومُغْضَبٍ رَجَعَت بِيضُ السُيُوفِ بِهِ حَيَّ الرِّضَا مِنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ
٦١. والحَرْبُ قائمَةٌ في مأْزِقٍ لَجِـــجٍ يَجْثُو القِيَامُ بِهِ صُغْـراً على الرُكَبِ[٢]
٦٢. كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِن سَنـا قَمَرٍ وتَحْتَ عارِضِهَا مَـنْ عَارِضٍ شَنِبِ
٦٣. كَمْ كانَ في قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا إلى المُخَدَّرَةِ العَذْرَاءِ مِـــنْ سَبَبِ
٦٤. كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً تَهتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فـــي كُثُبِ[٣]
٦٥. بِيضٌ إِذا انتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِها رَجَعَتْ أَحَقَّ بالبِيضِ ابدَاناً مِـــنَ الحُجُبِ[٤]

في هذه الأبيات وصف عام لعواقب هذه الحـرب. قـال التبريـزي: ((ويقال إن بعض من مكان بعمورية من الرهبان قال: إنا نجد فـي كتبنـا أَنه لا يفتح هذه البلدة إلا ملك يغرس في ظاهرها شجر التين والكرم ويقيم حتى يُثمرا، فأمر المعتصم بأَن يغترس التين والكرم، فكان الفتح قبل ذلك، فاستعار النضج للأعمار لَمّا قابله بنضج التين والعنب)) [٥]، ونسـب ابـن المستوفي هذا الكلام لأبي العلاء، وذكر قول الخـارزنجي: إن أصـحاب توفلس كانوا تسعين ألفا في العدد...) [٦]؛ من ذلك يتبين أَن الذين ذكـرهم أبو تمام((تسعون ألفا)) ووصفهم في شجاعتهم كآساد الشـرى هـم جنـد توفلس وأَن قطافهم قد آن قبل أوان التين والعنب .

---

(١) آساد الشرى: والشرى: موضع تنسب إليه الأسد، يقال للشجعان: ما هم إلا أُسود الشرى. ينظر اللسان: شرى .

(٢) ورد في شرح التبريزي: ١٧/١: تجثوا القيام. وفي النظام: ٦٧/٢: تجثو القيـام، صعرا على ...

(٣) ورد في شرح الصولي: ٢٠٥/١: تهتز في قضب. وفي النظام : ٧١/٢: تهتز من من كثب .

(٤) ورد في شرح التبريزي: ٧٢/١، وفي النظام: ٧١/٢: بالبيض أترابا .

(٥) ينظر شرح التبريزي: ٧٠/١ .

(٦) ينظر النظام: ٦٥/٢ .

وفي البيت (التشبيه المرسل) الذي ذُكرت فيه الأداة، بقوله: ((تسعون ألفا كآساد والشَّرى)) و(استعار) لأوان قتلهم قوله: ((نضجت أعمارهم)) و(التكرار) في (نضج) لاختلاف العائد. ثم بيَّن أن النفوس قلَّما تُسَرُّ بما سُرَّت به حشود جيش المعتصم؛ عندما سحقوا جيش توفلس وقطعوا دابرهم، فبعث ذلك السرور فيهم نشوة النصر؛ بما كان أكثر أثراً مما لو ضُمِّخوا بطيب المسك. و(طابق) في قوله: (طابت-ولم تطب)، وفيه(ردا العجز على الصدر) أيضا. وأضاف بأَن هناك مع المقاتلين من غضبوا لله لانتهاك المحارم والتمثيل بالمسلمين، فعادوا بعد ما فعلته سيوفهم في تدمير المعتدين راضين مسرورين. وفيه (المطابقة) بين (حي-وميت، الرضا-والغضب)، و(رد العجز على الصدر) في (الغضب-ومغضب)، و(التسهيم) في قوله: (من رَداهم..الخ)أي أن هلاك الكفار دليل على موت غضب المسلمين .

ثم يصف الحرب بأَن شأنها المآزق والضيق والمواقف الحرجة؛ ذلك لأَن الطرفين يكيد أَحدهما للآخر ويمكر به ويتحين الفرص ويُضيِّق عليه لإهلاكه، حتى أن الشامخين والمتكبرين منهم قد يستسلموا أو يولّوا الأدبار في بعض المواقف و(استعار) لذلك قوله: (يجثو القيام...) أي: ينهار ويُخذل الشجاع المشار إليه بـ(القيام) فيستسلم في بعض المواقف من شدة أهوالها، و(المطابقة) في (يجثو-والقيام)، و(المبالغة) في قوله: (في مأزق لجج) إذ إن كلا المفردتين بمعنى واحد وهو: الضيق؛ فكررها للإفراط بالوصف؛ و(المبالغة) كذلك في قوله: (يجثو...)، و(المواردة) مع أبي محجن الثقفي إذ يقول[1] :

إنْ حَمَلُوا لم نَرْم مَوَاقِفَنا وإن حَمَلنا جَثَوْا على الرُّكَبِ

(١) ينظر: خزانة الأدب للبغدادي: ٤١٣/٨ .

وذلك في قوله: (يجثو على الركب) . ثم يصف عواقب هذه الحرب بأنها كثيرا ما سُبِيَتْ في ظلها من جارية تضيء كالقمر حسناً، فاستعار من قوله: (كم نيل...قمر) لاشتعال الحرب واستعارها التي كانت سببا في النيل من حسن الجواري السبايا اللواتي كالأقمار، إذ استعار لاشتعال الحرب سنا النار، وللجواري الحسان سنا القمر (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، واستعار بقوله: (وتحت عارضها ...شنب) لما يجري في ظل الحرب وخلالها وتحت أهوالها من النيل من برد رضاب عوارض أسنان الجواري السبايا، إذ استعار ما يثار من الدخان والغبار للسقف بقوله: (وتحت عارضها) وللاستمتاع بالنساء السبايا والترويح عندهن بقوله: (من عارض شنب) (استعارة تمثيلية)، و(الجناس التام) في قوله: (سناها–سنا) إذ تعود الأولى إلى الحرب؛ والثانية إلى النساء، وأيضا (عارضها–عارض) إذ تعود الأولى إلى الحرب؛ والثانية إلى النساء، و(التشبيه البليغ) في قوله: (سنا قمر) أي أنها تتلألأ حسنا كالقمر.

وكم –للتكثير– كم كان في قطع رقاب جيش المدينة المُدافع عنها من سبب في فتحها وسبي نسائها، (فاستعار) بقوله: (كم كان...بها) إلى عروق الرقاب، إذ شبهها بالأسباب أي: الحبال التي تكون السبب في ربط جهتين، و(استعار) بقوله: (الى المخدرة العذراء) إلى مدينة عمورية إذ شبه حصونها وأسوارها بالمرأة المخدرة التي لا يطلع احد على مفاتنها، وشبه منعتها وكونها عصية على الأعداء بالمرأة العذراء التي لم يفترعها احد (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، وفي البيت (رد العجز على الصدر) إذ قال في الصدر (أسباب) ثم قفّى بـ(سبب) و(الجناس) في (أسباب،سبب) الأول عروق الرقبة، والثاني ما يتوصل به كالحبل مثلا، و(الطباق) في (قطع–وسبب).

ثم يكرر هذا الوصف فيقول كم نالت السيوف المجردة الماضية في قطع الرقاب ، التي تهتز بأيدي الشجعان الذين أجسامهم كالقضبان، من

النساء اللواتي قدودهن كالأغصان؛ تهتز في إعجاز كالكثبان؛ إذ (استعار) من قوله: (تهتز من قضب) إلى أجسام الشجعان التي شبهها بالقضب وتهتز بأيديهم السيوف، و(استعار) لأجسام السبايا قوله: (قضب تهتز في كثب) إذ شبه قدودهنّ بالقضب؛ وشبه أَعجازهن بالكثب. و(الاستخدام) لـ(قضب) إذ إنها يمكن أن تكون صفة لأجسام الشجعان الذين تهتز السيوف بأيديهم، او تكون صفة لأجسام النساء التي تهتز فوق أَعجازهن التي كالكثبان . و(التكرار) في (تهتز،وقضب) لاختلاف العائد و(الجناس التام) في قوله: (قضب) إذ تعني الأولى السيوف والثانية الأجسام.

ثم يكرر فعل السيوف في الأعداء فيصفها بالبيض إذا سُلَّت من أَغمادها، عادت بعد الفتح ببيض الأبدان من السبايا–وهكذا وَصْفُ نساء الروم–وإنَّ سلَّها مع العودة بهذه الغنائم أولى للسيوف من بقائها في أَغمادها، أو إنه استعار من قوله: (بيض إذا انتضيت ... الخ البيت) أي: السيوف التي سُلَّت من أَغمادها، إلى الرجال الذين هبّوا من ديارهم لنصرة أهل الثغور والدفاع عن حياض الوطن، فإنهم أولى بالسبايا البيض من بقائهن في اخدارهن. والقرينة قوله: (بالبيض أبداناً) إذ لا شأن للسيوف بالجواري؛ (استعارة تمثيلية)، وفيه(الجناس التام) في قوله: (بيض–بالبيض) الأولى للسيوف؛ والثانية لنساء الروم، وكذلك في قوله: (حجبها–حجب) الأولى للأَغماد والثانية للنساء، و(رد العجز على الصدر) في قوله: (حجبها) ثم قفّى (بالحجب) .

٦٦. خَلِيفَةَ اللهِ جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ جُرْثُومَةِ المُلْكِ والإسْلاَمِ والحَسَبِ[١]

٦٧. بَصُرْتَ بالرّاحَةِ الكُبْرى فَلَمْ تَرَها تُنَالُ إلاَّ على جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ[٢]

٦٨. إن كانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ[٣]

---

(١) ورد في شرح الصولي: ٢٠٦/١، وشرح التبريزي: ٧٢/١: جرثومة الدين .

(٢) ورد في شرح الصولي: ٢٠٦/١: بالراحة العظمى .

(٣) ورد في النظام: ٧٣/٢، وشرح التبريزي: ٧٣/١: مرور الدهر .

٦٩. فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِـــــها وبَيْنَ أَيَّام بَـدْرٍ أَقْـرَبُ النَّسَـبِ
٧٠. أَبْقَتْ بَنِي الأَصْفَرَ المِمْرَاضِ كاسْمِهِمِ صُـفْرَ الوَجُوهِ وجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

خاطب المعتصم بأنه خليفة الله في الأرض، ودعى الله تعالى أن يكافأه عن صيانة وحماية بلاد المسلمين ودينهم وحسبهم وأعراضهم، وفي قوله: (خليفة الله) (اقتباس) من قوله تعالى: (يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً في الْأَرْضِ) [ص/٢٦] . و(التقسيم): وهو استيفاء أقسام الشيء بالذكر[1]. في قوله: (جرثومة الملك والإسلام والحسب) وهي أهم ما يحرص عليه المسلم.

وقوله: (بصرت...) أي انه لا يستريح إلا بقضاء ما عليه من واجبات الدولة؛ دون النظر إلى ما يحصل له من المتاعب، وفي ذلك (كناية) عن الجِّد والحرص. وفيه (القصر: بالنفي والاستثناء) إذْ قَصَرَ نيل الراحة بقوله: (بصرت بالراحة... تنال) والاستثناء بقوله: (إلاّ على جسر من التعب)، واستعار قوله: (إلاّ على جسر من التعب) إلى الوسائل التي يسلكها؛ والمتاعب التي يتجشمها؛ والآلام التي يعاني منها هذا السلطان في تدبير الملك والرعية ليتمكن من العدل بينهم والإحسان إليهم؛ ليعبر بعد ذلك كله إلى راحة الضمير؛ ورجاء مرضاة الله تعالى التي وصفها بالراحة الكبرى، إذ استعار لذلك كله هيئة المشبه به الذي يسير على قنطرة مرتفعة طويلة ويعاني مشاق العبور ليصل بعد ذلك إلى بيته ويهنأ بالعيش مع عياله فيستريح من عنائه (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد.

وهذا يعني أن سروره لم يكن على صنوف الطعام في الموائد المترفة، أو اللَّهو في أَخدار النساء بين تبعُّلهن ورضابهن؛ بل بالسعي في إسعاد الرعية؛ وهذا أكمل ما يوصف به السلطان العادل.

ثم يخاطبه بأنه: إِنْ كان في حدثان الدهر بمرور الوقت من رحم موصولة أو حرمة غير مقطوعة، كان ذلك بين نصرك بفتح مدينة

(١) الإيضاح : ٢٠٥ .

عمورية وأثرها في دولة الإسلام؛ وبين نصر الله تعالى الرسول (ﷺ) والصحابة(رضي الله عنهم) في معركة بدر التي كانت نقطة تحول بين الكفر والإيمان، فكلاهما دعامتان وشيجتا النسب في تاريخ الإسلام. وفيهما (اللف والنشر): وهو أن يذكر شيئين فصاعدا ثم يرمي تفسير ذلك جملة.. [1]، فاللف في قوله: (إن كان بين صروف...الخ البيت) والنشر في قوله: (فبين أيامك ... الخ البيت) و(المطابقة) في (موصولة-ومنقضب أي: منقطع)، و(التكرار) في (أيامك-وأيام) لاختلاف العائد، و(الجمع والتقسيم) فالتقسيم في قوله: (أيامك اللاتي نصرت بها، وأيام بدر) والجمع في قوله: (اقرب النسب). وإن هذه الأيام الجليلة جعلت بني الأصفر-وهو لقب الروم ويُسمون به-معلولين صفر الوجوه، إذ شبَّه اصفرار وجوههم بمضمون لقبهم(بني الأصفر) بقوله: (كاسمهم صفر الوجوه) من (تشبيه المحسوس بالمعقول). وجعلت أوجه العرب المسلمين مستبشرة بها مشرقة مزهوَّة مسرورة .

وهذه الأبيات الخمسة الأخيرة يمكن أن تكون (حسن ختام) القصيدة إذ نعت المعتصم بأنه خليفة الله في أرضه المدافع عن الإسلام ودولة المسلمين، الذي لا يُسعده إلاّ سعادتهم وأمانهم وشيوع العدل فيهم، وإن ما حققه لشعبه ولدينه يعدّ مثابة ودعامة من دعامات العز والعظمة ؛ يفخر بها المسلمون كما فخروا من قبل بنصر الله (عزّ وجلّ) لرسوله (ﷺ) في بدر وباقي المواقف التي عززت شأن المسلمين وانتشر فيها الدين وانكسرت شوكة الشرك والمشركين، ويمكن أن يكون (حسن الختام) مقصوراً على البيت الأخير، إذ أشار فيه إلى عاقبة الحرب على الطرفين، وذلك: بذلَّ الروم الذي انعكس في خسرانهم وشحوب وجوههم وسقم أجسامهم، وعزَّة العرب المسلمين الأقوياء بالنصر المستبشرين بالنجاح والفلاح، وهذا كلام

(١) ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ٢٤٥ .

يمثل حسن الختام حقيقة إذ أجاد فيه أبو تمام غاية الجودة لأنه كلام لا تنتظر بعده ما يقال ويحسن السكوت عليه.

قال ابن رشيق (ت٤٥٦هـ): ((وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأَسماع وسبيله أن يكون مُحْكما، ولا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الأخير قفلاً عليه))[١].

وأما حازم القرطاجنّي (ت٦٨٤هـ) فقد وضع ضوابط الختام بقوله: ((فأما ما يجب في المقاطع وهي أواخر القصائد، فأن يُتَحرّى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة؛ وأَنْ يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفِّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، .... وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع، لأنه منقَطَعُ الكلام وخاتمته، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إنضاج)) [٢]. وفي القصيدة المزيد من أوجه البلاغة؛ وهذا ما أعاننا الله عليه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) العمدة: ٢٣٩/١ .

(٢) منهاج البلغاء: ٢٨٥ .

الخاتمة

فضلاً عن الدرس البلاغي الذي استمتعنا بأَصنافه وأَنواعه في هذا التحليل ، هناك فائدة أخرى تتعلق بنشأة البلاغة ، إذ عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة ، وكان الشعراء والبلغاء يتنافسون ويتبارون بها فيما ينشؤونه من شعر أو نثر ، وذلك مشهور في تاريخ الأدب الجاهلي وما تلاه من عصور .

إذ إِن القبة الحمراء التي تضرب للنابغة الذبياني بسوق عكاظ للتحكيم بين الشعراء ، والقصائد الحوليات لزهير بن أبي سلمى ، وقول الحطيئة : ((خير الشعر الحولي المحكك))[1] ؛ خير دليل على الدرس البلاغي المتداول بالذوق والفطرة السليمة وفق أسس متعارفة لديهم ابتداءً . ثم ازداد الاهتمام بذلك بظهور الاسلام ونزول القرآن الذي تحدّى الله تعالى ببلاغة وفصاحة العرب وأَعجزهم أَن يأتوا بسورة من مثله ؛ فعُقدت مجالس الدرس والتعليم لأمة إِقرأ ، وبدأ التدوين والتأليف في بداية القرن الثاني الهجري ، ومنه : (كتاب الفصاحة) لأبي حاتم السجستاني (ت٢٠٠هـ) و (معاني القرآن) للفرّاء (ت ٢٠٧هـ) وصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ) و (فحولة الشعراء) للأصمعي (ت ٢١٦هـ) ومؤلفات عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) و (تأويل مشكل القرآن) لعبدالله ابن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) و (الكامل) للمبرِّد (ت٢٨٥)؛ هذا جزء من بواكير التأليف في هذا المجال الذي تطور بوضع مصطلحات بلاغية محددة في (كتاب البديع) لعبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) ، وتطور بعده بكتب البلاغة المعروفة التي توسعت بذكر المصطلحات البلاغية وتعريفها وتقسيمها الى التشعبات التي نعرفها اليوم.

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٨/١

إن الغاية من استعراض هذه التفاصيل ؛ بيان إن تطور الدرس البلاغي لم يكن ابتداعاً من علماء البلاغة الذين ابتكروه ؛ وإنما هو من حقائق هذه اللغة الكريمة ؛ ولم يكن لهم إلاّ اكتشافه واستنباط المصطلحات التي تناسبه ، وإنّ دليلي في ذلك ما ذكرته من أوجه البلاغة عند تحليلي لقصيدة أبي تمام (ت ٢٣١هـ) هذه ؛ التي بلغت (إحدى وأربعين صنفاً بلاغياً بما مجموعه تسعة وتسعون ومائة وجه ، التي تناسب تلك التراكيب البلاغية التي ظهرت في قصيدته ، في الوقت الذي لم تُحدد تلك المصطلحات التي نعتناها بها في زمنه وإنما حُددت بعده ، وإن تفننه بإظهار تلك التراكيب البلاغية كان من غناء هذه اللغة وقدرتها على مواكبة البلغاء ورفدهم ، ولا غرابة في ذلك فهي لغة القرآن الكريم التي هيأها الله تعالى بحكمته وهيأ العرب بصفاتٍ أَهَّلتهم لتلقي هذا الكتاب العزيز . وتلك ملاحظة جديرة بلفت الأَنظار اليها والله الموفق .

المصادر:

١- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت٥٣٨هـ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط١ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

٢- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ت٧٣٩هـ مكتبة النهضة بغداد .

٣- البرهان في إعجاز القران: لابن أبي الإِصبع المصري-تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي مطبعة المجمع العلمي -بغداد٢٠٠٦م .

٤- تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ت٩١١هـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة- مصر ط١ ١٣٧١هـ -١٩٥٢م .

٥- تاريخ الطبري-تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري-مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ط١ ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

٦- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي ت٧٢٥هـ تحقيق: أكرم عثمان يوسف-دار الرشيد للنشر بغداد- ١٩٨٠ .

٧- خزانة الأدب: للبغدادي طبعة بولاق ١٢٩٩هـ .

٨- خزانة الأدب وغاية الأَرب: تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي-شرح عصام شعيتو- دار مكتبة الهلال- بيروت ٩٨٧م، وط١ مطبعة القاهرة: ١٣٠٤هـ .

٩- الخصائص الكبرى: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت٩١١هـ دار الكتب العلمية -لبنان .

١٠- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي-تحقيق محمد عبده عزام-دار المعارف-مصر ١٩٦٤م .

١١- شرح الصولي لديوان أبي تمام-تحقيق الدكتور خلف رشيد نعمان-دار الرشيد بغداد ١٩٨٢م .

١٢- شرح الكافية البديعية: صفي الدين الحلي-تحقيق الدكتور نسيب نشاوي .

١٣- شرح مشكلات ديوان أبي تمام: احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ت٤٢١هـ تحقيق الدكتور عبدالله سليمان-مكتبة التراث مكة المكرمة .

١٤- الشعر والشعراء : عبدالله بن مسلم بن قتيبة-ت أحمد محمد شاكر- ط٢/ القاهرة ١٣٨٦- ١٩٦٦هـ.

١٥- العروض تهذيبه وإعادة تدوينه/جلال الدين الحنفي/مطبعة العاني بغداد/ ١٩٧٨ م .

١٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني-تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل- بيروت (ت١٩٧٢) .

١٧- الفوائد الآلوسية على الرسالة الأندلسية- العلامة عبد الباقي سعد الدين بن محمود شهاب الدين الآلوسي مخطوط رقم ١٤١٣- مكتبة حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني- بغداد .

١٨- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأفريقي المصري الأنصاري

ت٧١١هـ تحقيق نخبة من المتخصصين-دار الحديث القاهرة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م .

١٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: لأبي الحسن حازم القرطاجني- تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه- دار الكتب

الشرقية تونس ١٩٦٦م .

٢٠- النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام: لأبي البركات شـــرف الدين المبارك بن احمد الاربلي المعروف (بابن المستوفي) ت٦٣٧هـــ تحقيق الدكتور خلف رشيد نعمـــان-دار الشؤون الثقافية بغداد ط١ ١٩٨٩م .

ملحق بجرد الأوجه البلاغية:

ت	الوجه البلاغي	العدد	رقم البيت
١-	حسن المطلع	٠١	٠/١
٢-	براعة الاستهلال	٠٢	٠/٢/١
٣-	حسن التخلص	٠١	٠/٣
٤-	الاقتضاب	٠١	٠/١١
٥-	الاستعارة التمثيلية	١٦	٦/١٣/١٩/٢٥/٤١/٤٦/٤٧/٤٩/٥١/٥٢/٥٤/٦٣ ٢١ /٦٤/٦٦/٦٨
٦-	الاستعارة	٢١	١/٢/٣/٥/١٢/١٥/ ٢١١٨ / ٢١١٩ /٢٦/٣٣/٤٢/ ٢١٤ /٥٩/٦٢/٦٤/ ٢١٦٥ /٠
٧-	التشبيه البيلغ	٠٤	٢٦/٣٠/٨٥/٠/٦٣
٨-	التشبيه	٠٣	٢٧/٥٩/٧١
٩-	الكناية	١٨	٣١١٦ / ٢١١٧ /١٨/٢١/٢٣/٢٨/٣٦/ ٢١٣٨ /٣٩/٤٦/٢١٤ / ٢١٥٥ /٠/٦٨
١٠-	المجاز العقلي	٠٣	٢١٣٦ /٠/٣٨
١١-	التقديم والتأخير	٠٣	١/ ٢١٤١ /٠
١٢-	القصر	٠٢	٣٩/٦٨/٠
١٣-	الحذف	٠١	٠/٣٧
١٤-	التكرار	١٣	٣/١٥/١٩/٢٣/٣٢/٣٧/٤٨/٥٣/٥٧/٥٩/ ٢١٦٥ /٠/٧٠
١٥-	المماثلة	٠٣	٤٣/٤٥/٥٧/٠
١٦-	الجناس التام	٠٦	٤٠/٤٧/ ٢١٦٣ /٦٥/٦٦/٠
١٧-	الجناس	٠٩	٢/١٢/٢١/٥٠/٥٤/٦٤/٦٦/٠ /٢١١
١٨-	الطباق	٣٣	١/ ٢١٢ /٥/١١/١٢/ ٢١١٤ /١٥/١٦/١٨/٢٠/ ٢١٢٦ / ٢١٢٨ / ٢١٢٩ / ٣٠/ /٣١/٣٢/٣٤/٣٥/٤٧/ ٢١٤٨/ ٦٠/٢١٦١ /٦٢/٦٤/٦٩/٠

١٩-	الموارده	٠٣	٠/٦٢/٤٠/٣٨
٢٠-	الاقتباس	٠٤	٠/٦٧/٤٢/٤١/٣٩
٢١-	التورية	٠١	٠/٣٧
٢٢-	التصريع	٠١	٠/١
٢٣-	التشطير	٠١	٠/٣٧
٢٤-	الترصيع	٠١	٠/٢٩
٢٥-	الافتنان	٠٣	٠/٥٢/٢٠/٣
٢٦-	التفريع	٠٢	٠/٣٣/٣٢
٢٧-	المثل	٠١	٠/٥
٢٨-	رد العجز على الصدر	١٣	٠/٦٦/٦٤/٦١/٦٠/٥٣ / ٢١٥٠/ ٢١٤٨ /٤٤/٤٢/٢٠/٣
٢٩-	التفريق	٠١	٠/١١
٣٠-	تشابه الأطراف	٠١	٠/٢٢
٣١-	المقابلة	٠٧	٠/٣٥/٣٠/٢٨ /٢٤/١٤/١١/٢
٣٢-	المبالغة	٠٢	٠/٦٢/٢٦
٣٣-	الغلو	٠١	٠/٢٧
٣٤-	التقسيم	٠١	٠/٦٧
٣٥-	الجمع	٠٢	٠/٤٩/٤٣
٣٦-	الجمع والتقسيم	٠٥	٠/٧٠/٤٦/ ٢١٤٥ /٤٤
٣٧-	الاستخدام	٠٢	٠/٦٥/٤٨
٣٨-	التسهيم	٠٥	٠/٦١/٥٨/٥٧/٥٣/٥٢
٣٩-	التسجيع	٠١	٠/٥٢
٤٠-	اللف والنشر	٠١	٠/٧٠-٦٩
٤١-	حسن الختام	٠١	٠/٧١-٦٧

المجموع	١٩٩

Summary
As well as a lesson rhetoric which we enjoyed Bosnavh and types in this analysis , there is another benefit related to the genesis of rhetoric , as Arabs knew Balvsahh , rhetoric , and the poets and rhetoricians compete and compete out with Ancaouna of poetry or prose , so famous in the history of pre-Islamic literature and subsequent eras .

As the dome of red that hit the genius Thubiani market Okaz arbitration between poets , poems yearbooks for Zuhair bin Abi Salma , and say Alahtaih : ((good hair Holi Mahkk)); testament to the lesson rhetorical rolling taste and common sense according to the principles Mtarefh have a beginning . Then increased attention that the emergence of Islam and the revelation of the Qur'an who defied God eloquently and eloquence Arabs and Oadzhm to come surah of the like ; was held councils lesson and education for the nation, Read , and began blogging and writing at the beginning of the second century , of which: (Book eloquence) to Abu Hatem Sijistani (d. 200 AH) and (Quran) of fur (d. 207 AH) and newspaper Bishr ibn pilgrim (d. 210 AH) and (virility poets) Osamai (d. 216 AH) and works Amr ibn Bahr bigeye (d. 255 AH) and (interpretation of the problem of the Koran) to Abdullah Ibn Muslim bin Koutaiba (d. 276 AH) and (full) of the cooler (d. 285) ; this is part of the early writing in this area that the evolution of the development of terms rhetorical defined in (Book Budaiya) to Abdullah bin Moataz (d. 296 AH) , and the evolution beyond books rhetoric known which expanded by mentioning the terminology rhetorical and defined and divided into dendrites that we know today .